(١)

الباب الثاني

صفات الكتابة الجيدة

ما كان الموضوع ، وفي أي ميدان ، فان صفات معينة يتواطأ عليها علماء البيان ـ قديما وحديثا ـ تطبع الكتابة الجيدة بطابعها ، منها :

١ ـ الوحدة أو التجانس Unity or Consistancy

الوحدة تعني اعطاء القارىء المعلومات الوافية والمفصلة التي تساعد على تطوير النص ، وبيان المقصد الاساسي ، وفي الوقت ذاته تنفي بقوة كل ما يشوبه من مادة غير ذات علاقة ، بغض النظر عما قد تتبدى فيه هذه المادة من أهمية لدى محاولة كتابة « المسودة الاولى »[١] First Draft ولا تعني مطلقا ان على الكاتب ان يردد شيئا معينا واحدا ويظل يردده ، ولكن ان تعمل جميع العناصر بانسجام لتحقيق غرض الكاتب · ان الوحدة لا تعني الرتابة ولكن تعني الانسجام[٢] · ان النصوص الكتابية هي نمط من الاسلوب ، والاسلوب في تفرده كالانسان من حيث فروقاته · ولهذا رد علماء اللغة المسلمون الوحشي من الكلام الى وحشية في النفس[٣] ، تماما كما ان اختلاف الناس في صورهم وألوانهم هو آية من آيات الله تعالى[٤] ، اذ يتاح للفروقات الفردية أن تتمايز وتتغاير ، ومن ثم فان حكمة الله تعالى ومقاصده في الخلق ، وفي التكليف والابتلاء ، تمضي الى سننها ، كذلك النصوص والاساليب · وكما لا يتصور أحد امكان مضي المقاصد وفي الوجود النسخ المكرورة ـ يلغي الواحد ما قد يفعله الأخر ـ فانه لا يتصور أن يفكر اثنان بنفس الطريقة من حيث ترتيب الالفاظ

---

(١) Alexander Scharbach and Ralph H. Singleton, The lively Rhetoric, 2nd. ed. (U. S. A. 1972), p. 1.

وانظر : د· أحمد شلبي « كيف تكتب بحثا أو رسالة » ص ٧٤ ·

(٢) James Kreuzer and Lee Cogan, Studies In Prose Writing (U.S.A. 1963), p. 36.

(٣) البيان والتبيين ، ج ١ ص ١٤٤ ، وانظر رسائل ابن المعتز ، ص ٢٣ ·

(٤) قال تعالى (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف السنتكم وألوانكم) الروم ٢٢ ·

في النفس على منطق العقل[٥] . ان الكائن الحي ـ تنتظمه وحدة عضوية على تكثر اعضائه وتفاوتها على الوظائف والاعمال . كذلك النص الواحد ينبغي أن يكون من التجانس والوحدة ما يقربه الى عضوية الحياة وهو أرقى أنواع الخلق . وان كتابة تفتقد التجانس والوحدة لهي كتابة أبعد ما تكون عن منطق العقل والانسان ، لانها تغاير سنن الكون ، وطرائق الخلق . واذا كان التكثر في اعمال الجسم الواحد لا يلغي الوحدة أو ينافيها ، فكذلك التكثر في الافكار والفقرات والجمل لا ينافي وحدة الكتابة أو يلغيها .

ولم تكن الوحدة العضوية التي هي أرقى أنواع الوحدة لتغيب عن بال البلاغيين العرب أو تفارق ابصارهم وهم يتعاملون مع النصوص الادبية والفنية ، فلقد شبه الحاتمي القصيدة العربية بالانسان في اتصال اجزائه ببعض ، « فمتى انفصل واحد عن الاخر وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه »[٦] . وقال العتابي[٧] : « الالفاظ أجساد ، والمعاني أرواح ، وانما تراها بعيون القلوب ، فاذا قدمت مؤخرا ، أو أخرت منها مقدما ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس الى موضع يد ، أو يد الى موضع رجل ، لتحولت الخلقة ، وتغيرت الحلية »[٨] . وقال الامام عبد القاهر الجرجاني بحتمية النص التي هي كحتمية الخلق ، فلو أبدلت كلمة أو حولت جملة عن أختها لتقلقل السياق وتخون محاسن النص[٩] . وروى عن خلف الاحمر أنه قال : أجود الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء ، سهل المخارج ، فتعلم من ذلك قد أفرغ افراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا »[١٠] . وواضح أن سبك المعدن

---

(٥) يعرف ذلك معلمو المدارس ومعلماتها ، اذ يطلب الى التلاميذ كتابة موضوع تعبير عن الربيع مثلا . ومع أن بيئات الادراك واحدة الا ان أحدا منهم لا يكتب كما يكتب الاخر .

(٦) زهر الآداب ، ج ٣ ص ١٧ .

(٧) كلثوم بن عمرو من ولد عمرو بن كلثوم التغلبي ، كان شاعرا وكاتبا في الرسائل مجيدا وعاصر المأمون .

(٨) العسكري ، كتاب الصناعتين ، ص ١٦٧ .

(٩) انظر : دلائل الاعجاز ، ص ٣١ .

(١٠) البيان والتبيين ، ج ١ ص ٦٧ .

وافراغه هو التجانس الذي يمسك بذات المادة ينفي بقوة كل ما يشوبها من مواد غريبة ومغايرة .

وكمثل ما تتمثل العضويات الغذاء تستمده من عناصر شتى ومتغايره ثم تحيله الى مادة متجانسة ومعادلة متفردة فكذلك الكاتب والاديب عندما يكون له أسلوب خاص به . انه يسترفد التراث الانساني كله وما يتناهى اليه من نصوص ومعارف ، ثم يتحول ذلك كله من خلال ذاته الى خلق وابداع جديدين . ولقد أثر عن بنجامين فرانكلين Benjamin Franklin انه صقل موهبته وعلم نفسه الكتابة باعادة صياغة مقالات كانت تنشر في مجلة «سبكتاتور» Spectator الاميركية(١١) . وفي هذا الصدد يرى ضياء الدين بن الاثير أن على المتعلم ان يصرف همه الى حفظ القرآن الكريم ، وكثير من الاخبار النبوية ، وعدة من دواوين فحول الشعراء ... حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه »(١٢) . وحتى يكون للمتعلم ذاتيته فان ابن الاثير يقول : « ... وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لا شركة لاحد من المتقدمين فيها ، وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد، وصاحبها يعد اماما في فن الكتابة »(١٣) .

٢ ـ التوكيـــد Emphasis

التوكيد مرتبط ارتباطا وثيقا بالوحدة ، لانه يقرأن النقاط الاولى والاخيرة التي تستأثر بانتباهنا هي الاجزاء التي تواجهنا بقوة(١٤) . والتوكيد أمر نسبي ، اذ ما هو الاكثر أهمية ينبغي أن يتناول بمعالجة اكثر تفصيلا . ولهذا السبب ، على الطالب أن لا يعطي قدرا غير متناسب لامر غير مهم أو لاستطراد جانبي(١٥) .

---

(١١) Generative Grammar, p. 61.

وانظر : Altonce Morris and Others, The Modern Essay, 2nd. ed. (U.S.A., 1971), p. 59.

(١٢) المثل السائر : ج ١ ص ١٢٦ .

(١٣) المصدر ذاته والصفحة ذاتها .

(١٤) The Lively Rhetoric, p. 5.

(١٥) Ibid.

(٤)

والتوكيد في العربية على خبرين :

أ ـ التوكيد باللفظ ، مثاله قوله تعالى : « ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ، ان ربك من بعدها لغفور رحيم » النحل : ١١٩ فلما تكرر « ان ربك » مرتين علم أن ذلك أدل على المغفرة(١٦) . ومثاله قوله تعالى : « لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب) آل عمران : ١٨٨ . ومثاله قوله تعالى (وقال الذي آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار) غافر : ٣٨ و ٣٩ . فانه انما كرر نداء قومه هاهنا لزيادة التنبيه لهم والايقاظ من سنة الغفلة(١٧) . وقوله تعالى (أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين وجنات وعيون) الشعراء ١٣٢ ، ١٣٣ : تبيين للكثرة الكاثرة من تفاوت الطعوم والنكهة والاصناف الممنوحة . وفي الحديث الشريف قال النبي صلى الله عليه وسلم في وصف يوسف الصديق عليه السلام : « الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم(١٨) وفي الحديث ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ان بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم عليا ، فلا آذن ، ثم لا آذن ، ثم لا آذن الا ان يطلق علي ابنتي وينكح ابنتهم »(١٩) . وفي الشعر البيت :

وحدثتني يا سعد عنها فزدتني جنونا فزدني من حديثك يا سعد(٢٠)

وفي بيت الحطيئة :

الا حبذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها النأي والبعد

من حبه لهذه المرأة لم يرتكرير اسمها عيبا كما يقول الخفاجي(٢١)

---

(١٦) المثل السائر ، ج ٣ ص ١٦ .

(١٧) المصدر ذاته ، ص ١٩ .

(١٨) المصدر ذاته ، ص ٢٢ .

(١٩) المصدر ذاته، ص ١٠. وانظر تفسير ذلك في صفة الصفوة (ابن الجوزي): ١٣ وسبب عدم موافقة النبي صلى الله عليه وسلم على هذا النكاح هو ما صرح به في بعض الروايات: لا تجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد. والمرأة المذكورة: جويرية بنت أبي جهل بن هشام بن المغيرة، وأسلمت جويرية وبايعت وتزوجها عَتّاب بن أسيد. ثم تزوجها أبان بن سعيد بن العاصي.

(٢٠) المثل السائر ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٢١) سر الفصاحة ، ص ١١٥

(٥)

ب ـ التوكيد بالمعنى ، ومثاله قوله تعالى : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة اذا رجعتم تلك عشرة كاملة) البقرة : ١٩٦ . وقوله تعالى (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه) الاحزاب : ٤ . وقوله تعالى (فخر عليهم السقف من فوقهم) النحل : ٢٦. وقوله تعالى (فاذا نفخ في الصور نفخةٌ واحدةٌ وحملت الارض والجبال فدكتا دَكَّةً واحدةً) الحاقة : ١٣ و ١٤ . قال حاطب بن أبي بلتعة للرسول صلى الله عليه وسلم : « ... وما فعلت ذلك كفرا ، ولا ارتدادا عن ديني ، ولارضا بالكفر بعد الاسلام »(٢٢) .

وقد يأتي التوكيد باللام أو بأن أو بكليهما كما في قوله تعالى : (اذا جاءك المنافقون قالوا نشهد انك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون) المنافقون : ١ . فانظر الى هذه اللامات الثلاث الواردة في خبران ، والاولى وردت في قول المنافقين ، وانما وردت مؤكدة لانهم أظهروا من أنفسهم التصديق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتملقوا له ، وبالغوا في التملق ، وفي باطنهم خلافه ، واللام في الثانية لتصديق رسالته ، وفي الثالثة لتكذيب المنافقين(٢٣) . ومن المؤكد بأن واللام أيضا قوله تعالى (قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وانا له لناصحون) يوسف : ١١ . كما قد يأتي التوكيد في معرض ايجاز الحذف للدلالة على وفرة الاحتمالات وكثرة الايحاءات كما روى عن عمرو ابن ربيعة اذ قال لزياد بن الهبوله : « يا خير الفتيان ، أردد علي ما أخذته من ابلي » فردها عليه ، وفيها فحلها ، فنازعه الفحل الى الابل ، فصرعه عمرو فقال له زياد : « لو صرعتم يا بني شيبان الرجال كما تصرعون الابل لكنتم أنتم أنتم »(٢٤) . وواضح أن التوكيد هنا قد يعني الاشداء أو الشجعان أو ذوى البأس أو الذين لا يبالون بالمخاطر كما لا يخفى .

---

(٢٢) المثل السائر، جـ ٣ ص ٢٦ ـ ٢٧. وانظر تفصيل قصته في صحيح البخاري كتاب المغازي باب ٤٤ حديث ٤٠٢٥ وفيه أنه أوصل كتاباً إلى أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

(٢٣) المثل السائر ، ج ٢ ص ٢٤٤ .

(٢٤) المصدر ذاته ، ص ١٩٨ .

أما خير مثل على أن النقاط الاولى والاخيرة هي التي تواجهنا بقوة ، فلا أدل عليها من قوله تعالى : (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء ، وقضي الامر واستوت على الجودي · وقيل بعدا للقوم للظالمين) هود : ٤٤ · اذ معلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الارض ثم أمرت ومعلوم أن هذه السلسلة من الترتيبات لم تكن الا مجازاة للظالمين · ولفظة «قيل» هي ربط الظواهر الطبيعية بالانسان · وهكذا فرشت لفظة «قيل» لدور السياق ثم هي قد تكررت مؤذنة بالانتهاء من المعنى · وفي مثل هذا قال البلاغيون المسلمون : « ينبغي أن تجعل كلامك مشتبها اوله بآخره ، ومطابقا هاديه لعجزه »(٢٥) .

٣ ـ المعاناة Tension (٢٦) :

يعني أن يوقع الكاتب نفسه في حم العمل الابداعي من خلال اكتشاف الذات وحب الموضوع · ان اختيار موضوع يعطي الفرصة لتقديم وجهات النظر الفردية وتجارب المعاناة لهو في النجح الذي يقرب الكتابة من صفات الجودة · واذا كان البيان هو ترتيب المعاني في النفس فان النص يحمل قوة احساس النفس بالموضوع · يقول عامر بن عبد القيس : « الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب ، واذا خرجت من اللسان لا تجاوز الآذان(٢٧) ويقول الامام علي كرم الله وجهه : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكأن الله تعالى قد ألبسه من الجلالة وغشاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله »(٢٨) · ويقول فرانك لوكاس : اذا احترم الكاتب نفسه والحقيقة فان ذلك هو الامانة ، واذا احترم قراءه فتلك هي الجودة ومن الجودة أيضا : الوضوح Clarity والاقتصاد في اللغة Brevity (٢٩) هناك من

---

(٢٥) كتاب الصناعتين ، ص ١٤٨ ·

(٢٦) William W. Watt, An American Rhetoric I, 4th. ed. (New York, U.S.A. 1970), p. 10.

(٢٧) البيان والتبيين ، ط· السندوبي ، ج ١ ص ٨٣ ·

(٢٨) البيان والتبيين ، ط· السندوبي ، ج ١ ص ٨٣ ·

(٢٩) The Modern Essay, p. 61.

النصوص ما فضحت اصحابها ببرود العاطفة فقد عاب النقاد بيت امرىء القيس :

أغرك مني أن حبـك قاتلـي وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وقيل : اذا كان هذا لا يغر فما الذي يغر(٣٠) ؟

وعابوا قول الفرزدق :

ومن يأمن الحجاج والطير تتقي عقوبتـه الا ضعيف العزائـم

فقال له الحجاج : الطير تتقي الثوب ، وتتقي الصبي(٣١) .

وأنكر عبد الملك بن مروان على عبد الله بن قيس الرقيات قوله فيه :

يأتلـق التـاج فـوق مفرقـه عـلى جبـين كانـه الذهـب

وقوله له : تقول في هذا ، وتقول لمصعب :

انمـا مصعب شهـاب من اللـ ـه تجلت عن وجهه الظلماء

فقال له : تمدحني كما تمدح ملوك الاعاجم ، وتمدح مصعبا كما تمدح الخلفاء(٣٢) .

وفي عصرنا كتب الاديب محمود تيمور قصته « نداء المجهول » وتصور فيها أن صحراء شاسعة تفصل لبنان عن فلسطين كما حمل طابع البريد على الرسالة سوريا بينما كانت سوريا تحت الحكم العثماني(٣٣) . فاخطا لانه لم يكن أمينا مع نفسه في الوصف ، اذ تصور الرحلة قبل ان يقطعها بنفسه . ومثال آخر نجده عند الكاتب القصصي توماس هاردي : فقد اراد في بعض قصصه أن يصور حياة الطبقة الارستقراطية الانجليزية ففشل لانه حاول أن يكتب عما لم يجرب ويعرف(٣٤) .

وللمعاناة حلاوة يعرفها اصحابها ، من ذلك ما روى عن أرخميدس وقد اكتشف قانون الازاحة فخرج من الحمام يصيح وجدتها وجدتها . ويروى

---

(٣٠) سر الفصاحة ، ص ٣٠٩ .

(٣١) المصدر ذاته ، ص ٣١١ .

(٣٢) المصدر ذاته ، ص ٣١٢ . وانظر : المرزباني ـ الموشح ـ ص ١٧٨ .

(٣٣) محمود السمرة : في النقد الادبي ، ص ١٩ .

(٣٤) المصدر ذاته والصفحة ذاتها .

عن أبي عمرو بن العلاء أنه اشتبهت عليه كلمة «فرجة» بالضم أو الفتح فسمع وهو هارب من الحجاج شعرا :

ربما تجزع النفوس من الامـــ ـــر له فَرْجَةٌ كحل العقال

ثم قال : الا انه قد مات الحجاج . قال أبو عمرو : لم أدر بأيهما كنت أشد فرحا : بقوله : فرجة أو بقوله مات الحجاج .

ويروي شارح العقيدة الطحاوية عن أحد علماء الكلام قوله : « اضطجع على فراشي وأضع اللحفة على وجهي ، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر ، ولم يترجح عندي منها شيء[٣٥] .

وذكر عن الامام البخاري أنه كان يقوم من الليل مرارا يأخذ القداحة فيوري نارا ويسرج ثم يخرج أحاديث فيعلم عليها ثم يضع رأسه[٣٦] .

ويروي في «الموشح» أبو عبيد الله المرزباني ان أحدهم واسمه مثقال دخل على أبي تمام الطائي وقد عمل شعر حسنا ، وفي الابيات بيت واحد ليس كسائرها . فعلم – كما يقول الراوي ، أني قد وقفت على البيت . فقلت : لو أسقطت هذا البيت ، فضحك ، وقال لي : أتراك أعلم بهذا مني ؟ انما مثل هذا مثل رجل له بنون جماعة كلهم أديب جميل متقدم ومنهم واحد قبيح متخلف ، فهو يعرف أمره ، ويرى مكانه ، ولا يشتهي أن يموت[٣٧] .

ومن خلال إصرار عمر بن أبي ربيعة على قرض الشعر والاقتدار عليه قال جرير : ما زال يهذي حتى قال شعرا[٣٨] .

---

(٣٥) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٢٢٩ .
(٣٦) أحمد أمين : ضحى الاسلام ، ج ٢ ص ١١٢ .
(٣٧) الموشح ، ص ٣٢١ .
(٣٨) المصدر ذاته ، ص ٢٠٣ .